الانطباعية بين الواقع ومنطق العلاقات

جاءت الانطباعية للتحرر من تقاليد التصوير الكلاسيكي والنهضوي التي سادت ردحاً من الزمن حينذاك ، منفردةً بفلسفة جديدة في الرؤية والتعبير والأداء والتقنية ، متأثرةً بالعلم ومُكتشفاته ، مُتخلصة من آليّة الاستنساخ المباشر ، موظفةً العلم لنقل الصورة المرئية . فكانت بحق دعوةَ إلى الدهشة .

لقد عمد الانطباعيين إلى تحليل الضوء وانعكاساته على الماء والسماء والأشياء ، وهذا التحليل قد عمق من الاستجابة الآنية المباشرة في الأداء مع الحفاظ على الرؤية الذاتية التي تغلب الإحساس بالشكل المتجدد، وتعبر عن الشعور بأن كل ظاهرة هي حادث عابر لن يتكرر أبداً فـ" الحقيقة ليس لها وجود وإنما هي صيرورة ، لذا نجد كل لوحة انطباعية هي تسجيل في الحركة الدائمة للوجود وبفضل الفن الانطباعي تم التعبير عن الرؤية الذاتية بدلاً من الرؤية الموضوعية مع سيطرة الحالة العابرة على السمات الدائمة للحياة "

إن بنية الرسم الانطباعي هي بنية تحررية وثورية متمردة على مختلف مظاهر التسلط والعبودية ، فأعادت بناء الواقع بواقع آخر جديد ممزوجاً بالأفكار والتجارب العلمية ، ولما كان الإنسان – بحسب رأي (برديائييف) – حرّاً بطبيعته ، و " لكنه يقع تحت أشكال من العبودية وهي : عبودية الإنسان لذاته ، وللدولة ، وللكنيسة ، وكل المنظمات السياسية والاجتماعية ، والجمهور أو الرأي العام والحاجة ، وعلى الإنسان إذن أن يخرج من عبوديته بالتمرد " فالانطباعية بحق دعوةً إلى التمرد . وهذا ما سبقهم به (كوربيه) بقوله " أنه مما يقضي على الفن، أن يضطر إلى الالتزام والوقار الرسميين ويحكم عليه بالتفاهة العقيمة "

ولقد بدأت الانطباعية عام (١٨٧١ م) على لوحات (كلود مونيه) و(بيسارو) بعد عودتهم من (انجلترا) على أثر ما توصلوا إليه من معرفة في استعمال ألوان والضوء في وضح النهار وتحت اشعة الشمس ، وبعد أن اثبتوا أن الألوان الأساسية (الحمراء ، والصفراء ، والزرقاء) لاتحقق أغراضهم مثلما تحققه ألوان طيف الشمس السبعة ،وتم التأييد لنظرية (التكامل في الألوان Complementary) عندما أعلن (مونيه) ، (رينور) ، (ديجا) تأييدهم وجهة النظر الحديثة التي أتاحت لكل فنان أن يظهر شخصيته المميزة وأسلوبه الخاص

ويمكن القول بأن (ادوارد مانيه Eduard Manet) (١٨٣٢-١٨٨٣ م) يعد رائداً لانطلاقة الفن الحديث اذ اتجه (مانيه) إلى تصوير الارستقراطية الفرنسية ، ومن لوحاته الأولى (الغداء على العشب) ، والتي توضح لنا أنه رسم بأسلوب طبيعي ليعالج موضوعات واقعية ، وقد استسقى الإلهام في هذه اللوحة من (رافائيل وجيورجيوني) وبذلك يكشف الانطباعيون ما يخفى عن العين العادية ذلك أن الفن هو عمل عقلي ، إذ يقول (ليوناردو دافنشي) " إننا نرسم بواسطة الدماغ " ويؤكد ذلك أيضاً (مايكل أنجلو) ، ولقد جاء اسم الانطباعية من لوحة الفنان(كلود مونيه ١٨٤٠ –١٩٢٦)،أطلق عليها (انطباع شروق الشمس) صوَّر فيها مرسى ميناء هافر خارقاً بضباب الصباح الكثيف وأنجزت هذه اللوحة عام (١٨٧٤م) وأثارت استغراب الجمهور.

اذ تميزت رسومات الانطباعيين بالعفوية والإحساسات المباشرة ينقلها الفنان إلى اللوحة بأمانه، كما يراها ويدركها مجسداً الانتقال السريع من الإدراك إلى الحركة التصويرية ، وان التقنية الجديدة في تجزئة القيم اللونية ومجاورتها بحسب منهج علمي ، وجهت الانتباه نحو ميكانيكية الإدراك البصري وجعلت من الرؤية عملية معقدة تتطلب من المشاهد المشاركة الفعلية ، ولهذا لم تكن أسلوبا فنياً خاصاً بفترة محددة في بيئة محددة ، بل كانت أخر أسلوب أوربي له صفة الشمول ، وهو اتجاه يقوم على إتقان في الذوق والتجمع الإنساني، حول مبدأ او مجموعة من المبادئ التي تتصل بالفن من حيث أسلوبه وغايته

اما (فان كوخ Van Gogh) (١٨٥٣-١٨٩٠ م) فيعد ظاهرة فريدة في الفن الحديث ؛ إذ أكتسب الفن الانطباعي قيماً ذاتية أسهمت في اكتشاف المدى التشكيلي الجديد والمستقل عن المنظور ، فكانت لوحاته تفاعلاً مستمراً بين الإنسان والفراغ المحيط به والمملوء بالأشجار والأرض والسماء، فتمثلت اعماله بحدة التعبير عن المسافة والمدى الفضائي بواسطة قيم اللون الصافي أو تدرجاته وتشققاته ، مستفيداً من اطلاعه على النظريات العلمية التي وضعها العديد من الفيزيائيين المتعقلة بتحليل الضوء بواسطة الطيف الشمسي ، كما توصل إلى أن الانطباع اللوني ينتج من الظروف المناخية ويتحدد قيمته بواسطة الضوء الذي يتلقاه

أحدثت تقنية الانطباعيين ثورة على التقنيات السابقة التي تعلي من شأن الخط على حساب اللون ، إنها تقنية اتفقت مع مقولة (بيسارو ١٨٣٠ – ١٩٠٣) : " لا أرى سوى بقع ، فالطبيعة التي تحولت إلى مجرد بقع ، أصبح الفنان معها لا يثق بالعروض التقليدية السابقة للشكل وما يتبعها من تشذيبات لصالح المضمون ، فهي عرض بدون تعليق ، وانطباع لم يتعرض للتصحيح " كما كانت الأساليب الفنية التي تقوم عليها طرق الأداء في الحركة الانطباعية :

- الطريقة التقسيمية للألوان Divisionism :

وهي تعني تقسيم الألوان الثلاثية على اللوحة إلى عناصرها الأولية من الأحمر والأصفر والأزرق على هيأة بقع لونية وباستعمال الألوان الثانوية .

- الطريقة التنقيطية Pointillism :

وهي التي تعني بوضع هذه الألوان المنشورية التي نشاهدها في ألوان قوس قزح إلى جانب بعضها في مساحات الأشكال على هيأة نقط متجاورة ويشاهد هذا الأسلوب في أعمال (سورا) و (سينياك) .

- الطريقة الضوئية Lumieism :

وتعني دراسة الضوء في أوقات مختلفة لمنظر واحد كما في أعمال الفنان (مونيه) واستخدام النقط اللونية المتجاورة